الفنانة التي لا تنسى، محاسن

في هذه الصورة تظهر صديقتي الشهيدة الفنانة محاسن الخطيب، صديقتي محاسن كانت نموذجاً للفتاة الحالمة التي لم توقفها الظروف، كانت تجلس في علّية منزلها هنا لتعمل وتوصل صوتها ورسوماتها التي تحكي للعالم، لم تحبّ الأضواء يوماً، لكنّها كانت تتمنى أن يسمع الجميع عنها ويعرفونها من خلال فنّها، كثيراً ما كانت تقول "بدي كل العالم تصير تحكي هادي رسومات محاسن، بدي كل العالم يشوف ايش بعمل".

اجتهدت وعملت كثيراً من أجل حلمها بأن تصير فنانة رقمية عالمية، وكانت مدربة للعديد من الطلاب والطالبات خصوصاً، هذا المكان الذي التقطت صورتها فيه لم يعد موجوداً، لقد ذهب البيت، وذهبت العليّة، وذهبت محاسن وأحلامها، لكنّ أمنيتها تحققت وعرف الكثير من حول العالم أن محاسن استشهدت على طريق حلمها.

ملاذي المسروق

هذا المكان هو "مركز رشاد الشوا الثقافي"، أحد أهم المراكز الثقافية في غزة، وأحد أكثر الأماكن التصاقاً بذاكرتي وأهم مكونات هويتي الذاتية والثقافية.

وعيت على رشاد الشوا منذ كنت في الخامسة عشر، تلك الصورة الكبيرة التي تستقبلك كلّما دلفت الى المكان كانت صورته، يجلس بهدوء وتجلسُ كل الأشياء معه، كان يستقبلني كلّما دلفت الى المكتبة، كانت مكتبة ديانا تماري صباغ التي تعتبر جزءاً من المركز أول مكتبة حقيقية رأيتها وأعطتني شعوراً بالذهول، كنت أذهب الى هناك لأشعر بكينونة فاطم ووجودها، ولأشعر أنني حيّة وأنني أستطيعُ اكتشاف هذا العالم!

في هذه الصور تظهر قاعة الاحتفالات التي كانت تقام فيها دائماً الأمسيات الشعرية والاحتفالات والمسرحيات، وأحياناً تتحول الى سينما كون غزة لا سينما عندها، وهذا يُرضي أمنيات الكثيرين.

في الحرب الدائرة قصفوا رشاد الشوا، وقصفوا معه أجزاءً كثيرة من ذاكرتي وذاكرة كل الذين تعلقوا بالمكان، اللحظة الأولى التي دخلت بها المكان شعرت أنني أريد أن أبكي، لأنهم أخذوا مني شيئاً لم يكن عليهم أخذه، سرقوا جزءاً أصيلاً وجميلاً من ذاكرتي، لكنهم رغم ذلك لم يستطيعوا انتزاعه مني، لأن المكان جزءٌ من هويتي، ثابت مهما تبدّلت الأحوال.

ملعب للعائلات

هذا ملعب اليرموك الذي تحول الى مخيم للنازحين بعدما كان مكاناً مخصصاً لهتافات الجماهير ودوريات كرة القدم، على هذه المدرجات كنا نرى حماسة الجماهير وبهجتهم وتشجيعهم وهتافاتهم كلما صادف أن هناك دوري كرة قدم، لكن اليوم يجلس على المدرجات نساء فقدن بيوتهن ومنهم من فقدت زوجها أو طفلاً أو أحداً من أفراد عائلتها، وكلّ منهم لديها قصة!

تجلس هذه النساء على المدرجات التي تعيش عليها بشكلٍ فعلي، هذه المدرجات التي لا يزيد عرضها عن المتر الواحد تنام عليها عائلات كاملة فقدت بيوتها، وبين الفينة والأخرى يجلسون في هذه الفسحة الصغيرة يتطلعون الى أكوام الهموم المتراكمة أمامهم.

في الخيمة لا خصوصية ولا أمان ولا دفء ولا عيش كريم، لا يمكنني أن أتخيل كيف لامرأة بجسدٍ هزيل أن تعيش في مكان كهذا وأن تسقط عليها خيمتها كلما أمطرت الدنيا، وكيف لعائلات كاملة أن تعيش في هذا الضيق مرتاحة؟ كيف تمارس الفتيات والنساء حياتها؟ وكيف أن أصوات الهتاف والفرح تحولت الى آهات وتعب!

في الخيمة، لا شيء سوى الضجر!

شارعٌ آل إلى الدمار

هذا هو المشهد الحالي للمدينة، شوارع رملية، بيوت مهدمة، مرافق معدومة، كلّ الأماكن التي أحببناها تحولت الى خواءٍ كبير، وهذه المدينة، غدت مدينةَ أشباحٍ كبيرة.

هذا شارع المخابرات في شمال قطاع غزة، كان من أكثر الشوارع حيويةً كونه يُفضي الى البحر، والى فندق المتحف وأماكن أخرى اعتاد الناس الذهاب اليها، لكنه اليوم وبعد التدمير الكبير الذي حصل فيه والأحزمة النارية، تحول الى شكلٍ آخر احتجتُ وقتاً كي أتعرف عليه!

كل معالم هذه المدينة تغيرت، لقد أخذوا منّا كلّ الأشياء التي أحببناها.

ألوان وسط الرماد، كشك الألعاب

أرى أن غزة هي أكثر الأماكن تناقضاً في هذا العالم، وسط الحرب والدمار تجدُ هذه "البسطة" المليئة بألعاب الأطفال، في لونٍ مُغايرٍ للون الدمار والقتل، في تحدٍّ صارخ لآلة الاضطهاد، صورةٌ إذا تقرؤها ستقولُ لك "حتى لو قتلوا كلّ الأطفال، يولدُ أطفالٌ آخرون يحملون بأيديهم هذه الألعاب ويعيشون طفولتهم كما ينبغي في يومٍ ما

تُذهلُني دائماً يومياتُ هذه المدينة، وأهلها وشوارعها، أشخاصٌ لا يثنيهم الموت عن الحياة، وهذه بالنسبة لي هي معادلة "الزهري ضد الرمادي".

جيل اليوم

لا حالَ أحزنَ من حال الأطفال في هذه المدينة!

أمس كانت تحدّثني صديقتي عن ابنة أختها، تقول: "كانت بتحدثني عن أيامهم في الجنوب، بتحكيلي تخيّلي يا خالتو كنت أروح على التكية وأنا خجلانة، لليوم عازّة عليها نفسها عشانها كانت تروح وتوقف"

حمل الكثير من الأطفال أحمالاً أكبر من أعمارهم، في الوقت الذي من المفترض أن يكونوا في المدارس أو حدائق اللعب، ها هم يواجهون الحرب بصحنٍ صغير وقدمٍ حافية.

لا أكون سعيدةً دائماً عندما ألتقط مثل هذه الصور، بل يُحزنني جداً وتأكل قلبي هذه المشاهد، صغار هذه المدينة لا يحتملون كل هذا التعب، لكن عزائي الوحيد، أن يكون هذا الجيل هو من يقف في وجه الظلم يوماً ما.

الانتظار

الصورة من منطقة بحر السودانية حيث كانت تأتي طائرات المساعدات الجوية لإلقاء المساعدات، وكان يجلس هذان الرجلان في انتظارها، على تلّة من الرمل كبيرة، انتظرا طويلاً، منذ السادسة صباحاً تقريباً، وغيرهم الكثير ممن انتظر.

لا أستطيع أن أخمن الحديث الذي دار بينهما، لكنه لو كان الصمت لكفى!

ربّما حسرتهما على ما يشاهدونه أمامهما هي أبلغُ من ألف حديث، ربما أحدهما فقد بيته أو أحداً ما مقرباً، وربما أنهما يخمّنان متى ستأتي طائرة المساعدات ويعدّون الساعات، ربّما قد وضعوا كلّ الاحتمالات، لكن الطائرة في ذلك اليوم لم تأتي، وعاد الجميع خالي الوفاض.

بحر القوة

كلما شرحتُ أكثر عن علاقتنا كغزيين بالبحر، قلّ معنى ما أريدُ أن أقول.

هذا كان متنفّسنا الوحيد طيلة حياتنا، ورغم أنهم حاولوا أن يمنعوا عنّا البحر إلا أنهم لم يقدروا، لا شيء يحول بيننا وبينه، الجميع هنا كلّما أراد أن يتنفس نزل الى البحر، مجرد رؤيتك لهذا المدّ الكبير تشعرُ أنك قادر على أن تتنفس، وأن تكمل حياتك بهدوء على الأقل.

كان وما زال البحر لغة الحب المشتركة بيننا وبين المدينة، وكلما حاولوا اقتلاعه وسرقته منا، تشبّث بنا أكثر، حتى لكأننا صرنا واحداً!

نارٌ بلا طعام

في طريق العودة من رحلة انتظار المساعدات الجوية التي كانت تأتي عاد الجميع خائباً ولم يحصلوا على شيء، لكننا لم نعتد أن نعود الى البيت فارغين..

جمع الكثيرون الحطب الذي ظل الوسيلة الوحيدة المستخدمة حتى الآن بديلاً لغاز الطهي وعادوا به الى منازلهم بدلاً من أكياس المساعدات والغذاء، لكن.. ماذا ستفعل لو كانت لديك النار ولم يكن لديك الطعام؟

تاريخ من الشجاعة

لأجيال كاملة، كانت النساء هن الحاضنات الأساسيات، أساطير النضال، والبذور التي نبتت منها شجرة القوة والصمود.

لسنوات طويلة، ربّت النساء أبناءهن، وغرست فيهم الإيمان الثابت والفكرة أن التحرر يبدأ من أفعال صغيرة — ربما بكوفية.

وبنفس المعنى، لطالما رأيت الكوفية رمزاً لفلسطين، السيدة، ونحن أبناؤها، يقودنا الإيمان بأنه يجب أن نؤمن بمستقبل أفضل لأنفسنا، وأن المقاومة جدوى مستمرة تستحق العناء.

العودة

لا شيء أجمل من العودة الى البيت، رغم مشقة الطريق وصعوبة الوصول وطول الانتظار، تبقى اللحظة التي تشمُّ فيها هواء الوطن والمنزل أثمن من أي لحظةٍ أخرى.

هذا المشهد المهيب سيظل في ذاكرتي حتى أموت، ستظل هذه الصورة تذكاراً خالداً لجيلٍ كاملٍ من بعدي ليستنشقوا من خلالها معنى العودة الى الديار ومعنى البيت ومعنى أن يكون للوصول بعد الانتظارِ الطويل لذّة.

نعي لفاطمة – كلمة معتز، زوج فاطمة:

أنا لا أُجيد الرثاء.

ولا أظن أن الكلمات قادرة على احتواء امرأة مثل فاطمة .

كيف أكتب عن من كانت كل حياتي، كل ملامحي، كل تفاصيلي؟

كيف أختصر امرأة كانت ترى بالحسّ قبل أن ترى بالعين، وتلتقط الألم لا بالعدسة فقط، بل بروحها كلما اقتربت من الخطر؟

فاطمة لم تكن مصوّرة فقط.

كانت شاهدة. شاهدة على القهر، على الجرح، على ما لا يُحتمل.

كانت تمشي نحو الموت بقدمين ثابتتين، وكأنها تُشبه الحقيقة التي لا تهرب، لا تُزيّف، ولا تتراجع.

وكان بيننا وعد.

كنا نُردده في خلواتنا، في دعائنا، في خوفنا وجرأتنا:

"اللهم اجعل شهادتنا معًا، وإن لم يكن... فليلحق أحدُنا بالآخر، ولا يتحسر أحدُنا على الآخر."

رحلتِ قبلي يا فاطمة .

ورحل بك جزءي الأوفى، والأصدق، والأطهر .

قالت لي يومًا، كأنها تُودّع :

"إذا استشهدت، لا تدفن صوري. دعها تصرخ عني، تحكي حكايتي، تفضح كل ما رأيته وما لم أستطع أن أُنقذه ".

ومنذ 14 يومًا، لم أعد كما كنت .

منذ أن اخترقها صاروخ غادر، منذ أن غابت عن عيوني ولم أعد أجد ظلها في البيت، أو صوتها عند الباب، أو حتى أثرها على الوسادة.

أعيش نصف حياة. أتنفّس كمن ينتظر شيئًا لا يعود.

لكنها باقية، رغم الموت.

باقية في صورها التي تُعرض الآن، لا كفن، بل حياة.

كل صورة هي قطعة منها، من إحساسها، من خوفها، من شجاعتها.

وكل من يقف أمام أعمالها، يراها. يراها كما رأيتها أنا: طيّبة، شريفة، عنيدة في وجه القبح، نقيّة رغم كل الدمار.

أنا فخور بكِ يا فاطمة .

فخور أنني كنتُ زوجك، ورفيقك، وشاهدًا على ما كنتِ تحاربين لأجله .

وصيتك لن تُنسى .

صورك ستظل تتنفس .

وذكراكِ لن تُطمس، لأنك لم تعيشي كأي أحد... ولن ترحلي كأي أحد .

وإن كنتُ اليوم أكتب عنك من عالمٍ ضاق من بعدك،

فإني أعدك... لقاؤنا قريب .

قريب يا حبيبة القلب ...

هناك، حيث لا يُرمى الضوء بصاروخ،

ولا يُدفن الحُب تحت الركام،

هناك حيث الهناء اللا منقطع،

حيث الخلود السرمدي،

حيث نكمل حديثنا الذي قاطعه الموت.